

"فلسفة التاريخ وأهميتها في عمل المؤرخين"

المحاضرة الحادية عشرة

أولاً: تقديم:

تتمحور إشكالية الموضوع حول سؤال مركب ومفتوح وربما الإجابة عنه لا نهائية (هل ان فلسفة التاريخ بطبيعتها المعرفية حكر على الفلاسفة، وهل ثمة ما يمنع المؤرخين مهنيًا ومنهجياً من التفسير "التفلسف" في التاريخ؟). ولتفكيك الإشكالية الماثلة يمكن طرح مجموعة من الأسئلة أهمها: هل بدأ التاريخ مع ظهور الوعي التاريخي ام قبله؟ وهل دون الأوائل نصوصهم لوجود وعي تاريخي ام لحاجة انية في المجتمع آنذاك؟ وهل بدأ الإنسان القديم بالتفلسف مع ظهور الوعي الفلسفي ام قبله؟ وهل وجد اللاهوت قبل الاثنين؟ وما هي طبيعة المعرفة التاريخية؟ وهل من حق المؤرخ منهجياً التفلسف وتفسير الاحداث التاريخية؟ وإذا كان الامر كذلك، ما هي الحدود بين المؤرخ والفيلسوف في فلسفة التاريخ؟ وإذا سلمنا جدلاً بان الفلسفة هي ام العلوم، كما هو معروف وشائع، فهل يصح السؤال بماذا تفلسف الفلاسفة الأوائل وما هي مادتهم؟ وهل كان التاريخ ولازال مادة مهمة للفلسفة؟ وهل ينطبق على التاريخ ما هو شائع عن نشأة العلوم الأخرى من انها كانت مادة للفلسفة؟ وإذا كانت التراكمية واحدة من أبرز صفات العلوم، هل يمكن ان يكون التاريخ شريكاً للفلسفة في تكوينها؟ وهل فعلاً ان المؤرخين عاجزين عن التفلسف؟ كما وصفهم أحد علماء الاجتماع الفرنسيين بأنهم ظرفاء يجيدون جمع الرحيق، ولا يجيدون صنع العسل؟ ام ان منهجهم في الكتابة التاريخية يحول دون ذلك؟ وهل ان منهج البحث التاريخي ثابتاً جامداً ام متغير؟ سنحاول في ثنايا بحثنا المتواضع الإجابة عن التساؤلات أعلاه، بهدوء وبعيداً عن التطرف والتشنج، او المكابرة في بعض الأحيان، او الانحياز للتخصص، علنا نوفق في لفت الأنظار الى تلك المشكلة المعرفية والمنهجية.

ما لا خلاف عليه بين الفلاسفة والمفكرين والعلماء، "ان الفلسفة ام العلوم". وان النظريات العلمية نشأة من المجادلة والتفلسف والاسئلة الفلسفية تلك الأسئلة التي جعلت من سقراط حكيماً لطرحه الأسئلة ورغبته في مناقشة أفكاره (واربرتون، ٢٠١٩، صفحة ٢٥)، بعد ان عمل اللاهوت (عبادة مظاهر الطبيعة وغيرها)، والخرافات والاساطير والروايات الشفهية، وما حملته من مبالغات وغيبيات عملها بالمجتمعات

الأولى، والتي مع الوقت تحولت الى مسلمات ما وراثية (ميتافيزيقية)، ومعتقدات بات من الخطير جداً محاولة إعادة النظر بها وتغييرها. الى ان تفلسف المتمردين من الفلاسفة الأوائل، وطرحوا اسئلتهم العقلية حول تلك المسلمات التي تخص الانسان ووجوده والكون الذي يحيط به بإخضاعها الى العقل والمنطق. ومنذ مقولة سقراط الشهيرة "اعرف نفسك" تلك المقولة التي يعتقد الفيلسوف بايجل ورابرتون انها تلخيص لحياتنا، وتمثل قدرتنا على معرفة الذات، ويؤمن ان احدى مهام الفلسفة ان تعرض لنا الوسائل التي تساعدنا في مهمة معرفة ذواتنا (واربرتون، ٢٠١٩، صفحة ١٠)، فكانت النتيجة نشأة العلوم كنتاج طبيعي لتساؤلات الفلاسفة وحواراتهم وبحثهم عن حقائقها. كما يرى افلاطون بقوله: "ان الفلاسفة هم وحدهم من يفهم حقيقة هذا العالم. انهم يكشفون حقيقة هذا العالم بالتفكير وليس بالاعتماد على حواسهم" (واربرتون، ٢٠١٩، صفحة ٢٦). ذلك التفكير الذي توصل الى قوانين وقواعد علمية نتج عنها استقلال علوم قائمة بذاتها انقسمت الى علوم طبيعية، وعلوم إنسانية او اجتماعية.

ثانياً: هل تنطبق نشأة العلوم على التاريخ؟

ان حسم ما سبق الجدل حول نشأة العلوم وتطورها، لكن الامر مختلف بالنسبة للتاريخ. والسؤال الأبرز في هذا المجال (هل استطاع الفلاسفة الوصول الى قواعد وقوانين ثابتة تحكم حركة التاريخ، وتحوله الى علم قائم بذاته كما حدث مع العلوم الاخرى؟) إذا كانت الاجابة سلبية، فهل يعني ذلك ان التاريخ ما زال حالة وسطية بين العلم والا علم؟ او بتعبير اخر ربما حالة وسطية بين اللاهوت والفلسفة؟ وكل ما استطاع تحقيقه الذين ادلو بدلوهم في مجال فلسفة التاريخ من الفلاسفة والمؤرخين وغيرهم، كان ولازال عاجزاً عن الوصول الى قواعد وقوانين تحكم حركة التاريخ ومسيرة التاريخ البشري، او الإجابة على سؤال كبير ومفتوح هل ان التاريخ يسير بشكل منتظم من بداية الى نهاية معلومة ومحددة، سينتهي اليها مصير البشرية تحكمها قواعد علمية ثابتة كما هو مع العلوم الأخرى، أي كأن نقول في الكيمياء على سبيل المثال ان (H_2SO_4) أي بخلط ذرتين هيدروجين مع ذرة كبريت واربع ذرات اوكسجين نحصل على حامض الكبريتيك، او واحد زائد واحد يساوي اثنان في الرياضيات ...الخ، كحقائق علمية ثابتة او نتائج الاستبانة في العلوم الاجتماعية الأخرى، هل يمكن اخضاع التاريخ الى هذا المنطق ام ان حركة التاريخ وسيورته عملية عشوائية

متغيرة خاضعة لمتغيرات عديدة، رغم النظريات العديدة التي حاولت اخضاع التاريخ وحركته للمنطق أعلاه، من الفلاسفة والمؤرخين على حد سواء .

يرى المؤرخ محمد حبيدة ان القرن التاسع عشر هو قرن انفصال العلوم عن الفلسفة بما فيها التاريخ بالقول "السياق الاستيمولوجي الذي افرز التاريخ كعلم من بين علوم إنسانية كثيرة انتظمت خلال القرن التاسع عشر انتظاماً منهجياً معقداً ومتشابكاً، يتعلق بانفصال المعارف عن بعضها البعض علوم الطبيعة وعلوم الانسان، وكانت الموجة الوضعية في القرن المذكور التي ربطت فهم الواقع بقواعد العلم المبنية على الملاحظة العيانية والتجربة...اي غلب حينها التجريب على التجريد اذ طرأ انتقال من نقاش فلسفي مبني على الافتراض الى تفحص علمي يسعى الى تأكيد الأشياء...وبفضل التفحص والتجريب" حصل كما يرى الطلاق بين الفلسفة والعلم خلال ذلك القرن، وتفككت الفلسفة مثل امبراطورية عظيمة كانت مكونة من أقاليم مختلفة، تفتت بالتدرج، واستقلت عن النفوذ المركزي، كما ينقل عن الفيلسوف الايطالي باولو باريني (حبيده، ٢٠١٩، الصفحات ٢٠-٢٤).

ما ذهب اليه حبيدة في هذا الشأن ليس بجديد وهو ما ذهب اليه الكثير من المؤرخين والفلاسفة حول علمية التاريخ واسبقيته مقارنة بالعلوم الاجتماعية. يستعرض الفيلسوف عادل حدجامي اهم التناقضات الفكرية حول هذا الموضوع بالقول: هناك من يرى بان ربط التاريخ بالفلسفة امر مشروع، وتؤمن تلك الفئة بان العالم سيرورة أي تضفي صفة الاستمرارية على مجرى التاريخ البشري. وان هناك من يرى ان الفلسفة والتاريخ لا يمكن ان تفهم الا على سبيل التضاد، وان لا سبيل لإيجاد أي وشيجة بين طرفين على النقيض من بعضهما فالتاريخ لا علاقة له بالفلسفة اطلاقاً، وبهذا التصور هناك مدارس يمكن ردها جميعاً الى الاس الميتافيزيقي الذي يرى ان العالم ساكن ثابت، وحتى ان كنا نرى بان ما يحصل يتغير فان هذا الذي يتغير ليس هو الأساس ينبغي على النظر ان يرتقي الى حد النظر الى الثابت الذي يستحق ان يرى خلف هذا المتغير الذي يتكون ويتحول، وسنرى ان خلف الطبيعة المتحولة هناك ثابت يجب النظر اليه يسميه ارسطو الجوهر)،

فعلى الفيلسوف

اشغال باله بالثابت وبالتالي ليس على الفيلسوف ان يعنى بالتاريخ، كما يرى افلاطون بان الفيلسوف يجب ان

يتعلق نظره بالخالد والساكن والثابت اما ما ينحل ويتحول أي التاريخ فينبغي ان نتركه للعامة (حدجامي، ٢٠١٨).

لكنه بعد ذلك الطلاق يقر على لسان هيغل بان حقيقة الفلسفة نجدها في التاريخ مادة الفلسفة وتحققها بسط لمطوي وهو الفلسفة والفلسفة طي لمبسوط وهو التاريخ (وهو يتحدث هنا عن الفلسفة والتاريخ ليست فلسفة التاريخ التي تمثل اس العلاقة القوية بين الطرفين)، كذلك ينقل عن الماركسيون بان لا يمكن التفلسف خارج التاريخ لان الفلسفة ايديولوجيا، ولا يمكن تفسير الأيديولوجي بالأيديولوجي.

ما سبق يدخل التاريخ في منعطف خطير حاول الدكتور محسن الإجابة عنه بالقول: "كان على المعنيين الجادين بقضايا التاريخ، والذين يرون ضرورة ديمومة الاهتمام به ان يبحثوا عن حل لإنقاذ هذه المعرفة من براثن النظرة القاصرة تجاهها، وفي محاولتهم عثروا على حلين احدهما خاص بالمؤرخ، والثاني يكمن في إيجاد نظرة شمولية ودقيقة" (حسين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، ٢٠١٢، صفحة ١٠)، والمأزق بالنسبة للتأريخ والمؤرخ هو جعل علمية التاريخ على المحك، وربما تأييد للمشككين بعلمية التاريخ والذين ينظرون اليه بانه ليس سوى لون من ألوان الآداب الإنسانية، وهذا بدوره يدفعنا الى القول ان عجز الفلاسفة عن اثبات علمية التاريخ من خلال التوصل الى قواعد وقوانين علمية ثابتة تحكم حركة الكون ربما يعني ان التاريخ ليس بعلم، وما سبق يمكن ان يصح على التاريخ، لكن السؤال الالهم في هذا المنعطف الذي لا يحسد عليه المؤرخين ماذا قصد ابن خلدون فيلسوف التاريخ في تعريفه للتاريخ بانه ليس سوى اخبار واحداث الماضي... في احدى خصائصه وفي خصائصه الأخرى نظر وتحقيق وتعليل لتلك الاحداث والوقائع ما هذا الخاصية الثانية وماذا تعني ممارستها؟ يبدو انها لم تكون واضحة المعالم حتى جاءت المدرسة المنهجية في المانيا بقيادة رانكه وزملاؤه الذين وضعوا منهجية للبحث التاريخي وبولادة تلك المنهجية تأسست التاريخ، واصبح له اساتذة ومريدين اي طلبة وبدأ يدرس وفقا لقواعد واصول ثابتة اعتمدت على مبادئ منها الزمكانية واعتماد الوثائق التي ظهرت أهميتها، ودرس التاريخ وفقا لمنهج صارم لا يسمح للمؤرخ بإبداء رأيه في الاحداث التي يكتب عنها عكس ما ذهب اليه الفلاسفة في تأملاتهم وبحثهم عن ما وراء الأحداث وربطها والبحث عن قوانين عامة تحكم مسيرتها، وهذا الامر ليس من اهتمامات على الاقل الجيل الاول من المؤرخين

الذين قادوا عملية انفصال التاريخ عن الفلسفة مطلع القرن التاسع عشر كما فصله الفلاسفة عن اللاهوت قبل قرن من الزمن (حبيده، ٢٠١٩، صفحة ٢٩).

يكمن السؤال الابرز والذي يمكن عده إشكالية الموضوع هل يحق للمؤرخين التفلسف في تخصصهم كما في العلوم والموضوعات الأخرى، بتبني طريقة للبحث وسد الثغرات التي لا تجيب عنها الوثائق في الموضوع قيد البحث، لان الوثائق مهما كانت اهميتها ودورها فهي لا تستطيع رسم صورة متكاملة لأي حدث، وفي اي عصر دون تدخل المؤرخين في استنتاجاتهم العقلية في اخراجهم للحادثة التاريخية، ولا بد ان يكون ذلك وفقا لنوع العقلية التي يحملونها، وحينما نتحدث عن الجانب العقلي في رسم الاحداث الماضية كأننا نشير الى الفلسفة او التفلسف في عملية البحث عن الحقيقة، لكن ليست الحقيقة بمفهومها المطلق كما يذهب اليه الفلاسفة بل حقيقة ما حدث وما جرى في الموضوع قيد البحث والدراسة، بمراعاة ما يمتلكه المؤرخ من وثائق ومصادر حول الموضوع مقيدا بزمان ومكان معينين.